سُورَةُ المُلْكِ

النزول: مكية.

فضل السورة:

ورد في فضل سورة الملك عدد من الأحاديث تفيد أنَّها تحمي قارئها، وتُنْجيه من عذاب القبر. ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غُفر له، وهي ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**». (رواه أحمد برقم ٧٩٧٥ (١٣/ ٣٥٣) ط الرسالة، وأبو داود في كتاب الصلاة، برقم ١٤٠٠ (٢/ ٥٧) والترمذي برقم ٢٨٩١ (٥/ ١٤) تحقيق د. بشار عواد).

المقاصد:

١ ـ إثبات عظمة الله تعالى وقدرته على كل شيء.

٢ ـ إقامة الحجة على الكافرين المنكرين للبعث والجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ
فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾
وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ ـ تبدأ السورة الكريمة ببيان عظمة الله تعالى، وأنه سبحانه يملك الخير كله، ويَهَبُ البركة لِـمَنْ يشاء، وله التصرف المطلق في هذا الكون، وقدرته سبحانه لا حَدَّ لها، فلا يُعجزه شيء، ويتصرف في مُلْكِه كيف يريد.

٢ ـ من دلائل قدرة الله تعالى أنه هو الذي يميت ويحيي، فالموت والحياة مخلوقان من جملة ما خَلَقَ، وهو الذي يَهَبُ الحياة لِـمَنْ يشاء، فيحيا بعد أن كان ميتاً، ويُميته بعد ذلك دون إرادةٍ منه، فالإرادة في الإحياء والإماتة لله وحده. وتُبَيِّنُ الآيةُ الحكمةَ من خلق الموت والحياة، وهي اختبار العباد وامتحانهم، ليَظْهَرَ إحسان المحسن وإساءة المسيء، وهو سبحانه الغالب، النافذ حُكْمُه وأمره، الكثير السَّتْر لِـمَنْ تاب وأصلح.

٣ ـ ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه خلق السموات السبع على هيئة طبقات بعضها فوق بعض، وهي خالية من العيوب، لا تَصَدُّعَ فيها ولا شقوق، ولا تبايُنَ ولا تَخالُفَ، فانظر ـ أيها الإنسان ـ إلى السماء مرة بعد مرة، وتأمَّلْ في هذا الخلق العظيم، فلن ترى فيه أي عيب أو خلل.

٤ ـ يطلب الله تعالى في هذه الآية الكريمة إلى الإنسان أن يُعيد النظر

والتأمل في خَلْقِ السماء، ومدى إحكامه وإتقانه، وأن يتفحص ويبحث عن العيب والنقص في هذا الخَلْقِ المُحْكَم البديع. ونتيجة هذا النظر والبحث والتنقيب عن العيوب في الخلق هي التيقُّن من إبداع الخلق وإتقانه، وأنَّ مَنْ يبحث عن العيب والنقص فيه سيصاب بالحسرة والخيبة والإعياء.

٥ ـ بعد أن بَيَّنَت الآيةُ السابقةُ خُلُوَّ السماء من العيب والخَلل، تُبَيِّنُ هذه الآية مظهراً من مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته، وهو تزيين السماء الأولى القريبة من الأرض بالنجوم والكواكب، التي تُرى من الأرض على هيئة المصابيح المضيئة، ولها مهمة أخرى وهي رصد الشياطين الذين يحاولون الدنوَّ من السماء، وهَيَّأ الله للشياطين عذاباً شديداً في الآخرة، وهو نار حامية مستعرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في افتتاح السورة الكريمة بالإخبار عن عظمة الله والثناء عليه، براعة استهلال لندرة البدء بمثله في لغة العرب. وفي اختيار لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ إشارة إلى أهمية البركة وفضلها، وهي أمر معنوي يُشْعَر به، ولا تُدْرَك حقيقته.

٢ ـ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الموت على الحياة؛ لأنَّه أسبق في الوجود، ولأنَّ مُدَّتَه أطول من مدة الحياة، ولأن قدرة الله تعالى فيه أوضح وأظهر.

٣ ـ كما أن الحياة نعمة عظمى فإن الموت نعمة كذلك، فهو السبيل للوصول إلى الجنة والنعيم، وبه تحصل الراحة من الهموم والغُموم، وفيه العِبْرَةُ والعظة لجميع الخلق؛ ولذا ورد في الأحاديث الحثُّ على تَذَكُّرِه وتَرَقُّبِه، كما في قوله ﷺ: «أَكْثِرُوا من ذكر هاذم اللذات». (رواه أحمد في المسند برقم ٧٩٢٥ (١٣/ ٣٠١) الرسالة، ورواه آخرون، وهو حسن، وهاذم بالذال: قاطع).

٤ ـ الإتقان والإحكام والإبداع ظاهر في الخلق كله، كبيره وصغيره، حَيِّه وجَمادِه، مَرْئِيِّه وخَفِيِّه، ظاهره وباطنه، ولا يزيد البحث والتنقيب عن الخلل في الخَلْق هذه القاعدةَ إلا ثباتاً وتحقُّقاً.

٥ ـ النص يركز على البصر في الآيات دون غيره من الحواسِّ؛ لأنَّه الوسيلة المثلى عند الإنسان للفحص والاختبار والتأكد من سلامة الشيء، أو حصول العيب فيه.

٦ ـ في إضافة الخلق إلى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إشارة إلى عموم رحمة الله تعالى بخلقه، وأن الرحمة هي مبدأ التعامل مع الخلق، ولا يُحرم منها إلا من لا يستحقها.

٧ ـ تشير الآيات إلى أنَّ تَفَحُّصَ الشيء للتيقُّن من سلامته أو عيبه يحتاج إلى النظر فيه مراراً عديدة، فقد لا يظهر العيب من بادئ النظر وأوَّلِه.

٨ ـ ما تُرْجَمُ به الشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح مُنْقَضَّةً، وتسمى الشُّهُبَ.

٩ ـ ينظر: زينة الكواكب في السماء، كما في الملحق.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

التفسير:

٦ ـ تُبَيِّنُ الآية الكريمة أن للكافرين من بني آدم ومن الشياطين عذاباً مُهَيَّأً ومُعَدَّاً في جهنم، فهم سيعذبون يوم القيامة جزاء كفرهم، وبئس ما يصيرون إليه، وهو جهنم.

٧ ـ حين يُلقى الكفار في نار جهنم يصدر منها صوت مُنْكَرٌ قبيح، وحين يسمعونه يزيد ذلك من عذابهم وفزعهم، وتكون جهنم في حالة غليان لشدة لهيبها.

٨ ـ تكاد جهنم تَتَقَطَّعُ وينفصل بعضها عن بعض؛ من شدة غيظها وغضبها على الكافرين، الذين استحَقُّوا دُخولَها بسبب سوء فِعْلِهم. وفي هذا تصوير لقوة اشتعالها وعظيم نارها، وكلما دخلها جماعة من الكافرين بادرهم

خَزَنَةُ جهنم بالسؤال توبيخاً لهم: ألم يرسل الله تعالى إليكم رسولاً يدعوكم إلى الهداية، ويَحُثُّكم على الخير، ويُنْذِرُكم هذا العذاب الأليم.

٩ ـ قال أهل النار للملائكة مُقِرِّين ببعثة الرسول: بلى، قد حصل، وجاءنا رسول من الله ولكنا لم نَتَّبِعْه ولم نؤمن به، واتهمناه بالكذب على الله، وزَعَمْنا أنه هو وأتباعه ضالُّون ضلالاً كبيراً، وكنا نظنُّ أنفسنا على الصواب.

١٠ ـ بدأ أهل النار بلوم أنفسهم ومعاتبتها، فقالوا فيما بينهم: لو أننا أعمَلْنا عقولنا وأسماعنا، واتَّبعنا الرسول فيما دعانا إليه من خير وهدى، لَنجونا من عذاب النار.

١١ ـ هذا الاعتراف من أهل النار لا ينفعهم، فقد حصل في وقت غير مناسب، وهم مستحقون للهلاك والعذاب الشديد الذي هم فيه.

١٢ ـ بعد بيان مصير الكافرين، تبيِّن هذه الآية مصير المؤمنين الذين عَظَّموا الله تعالى في الدنيا، وخافوا من عذابه دون أن يَرَوْه، فهم مستحقون لأن تُغْفَرَ ذنوبُهم، ولأن ينالوا ثواباً عظيماً في مقابل إيمانهم بالله.

١٣ ـ تُبَيِّنُ هذه الآية شمول علم الله تعالى للسر والعلن. ويشمل ذلك كلَّ ما يمكن أن يُسَرَّ ويُعْلَنَ من نيات، واعتقاد، وهَمّ، وعلم، وعمل، فالله تعالى يعلم الأمور الخفية في القلوب، كما يعلم الأمور الظاهرة.

١٤ ـ وكيف لا يعلم الله تعالى الأسرار والخفايا، وهو الذي خلقها، وخَلَقَ كل شيء؟ ومن مظاهر قدرته البالغة عِلْمُه بالخفايا ودقائق الأمور علماً يقيناً محيطاً بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ نسبة الغيظ والشهيق إلى جهنم: إمَّا أن يكون على ظاهره، وإمَّا أن يُحمل على تشبيه صوت لهيبها وسرعة تبادُرِها بصوت الغضبان وحركته، وإمَّا أن يكون المقصود به الزبانية. (الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣٠/٥٦).

٢ ـ تَدُلُّ الآية الكريمة أنَّ الكافرين يدخلون جهنم أفواجاً متتابعة، وأنَّ دخولهم إليها يكون مصحوباً بالإهانة والصغار، إذ يُلْقَون فيها إلقاءً.

٣ ـ لا ينفع الندم إذا حصل في غير وقته المناسب.

٤ ـ عِلْمُ الله تعالى محيط بكل الدقائق، وشامل لجميع الأسرار والخفايا في هذا الكون، وهذا من لوازم ألوهيته سبحانه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم
مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ
إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٥ ـ سَخَّرَ الله سبحانه الأرض لكم أيها البشر، وجَعَلَها مُذَلَّلَةً يَسْهُلُ السير فيها، فسيروا في أنحائها في طلب المعاش والرزق، والتمِسُوا من نِعَم الله فيها، وكُلوا وانتفعوا ممَّا رزقكم الله، واعلموا أنَّ مرجعكم ومآلكم إليه سبحانه.

١٦ ـ انتقل الخطاب في هذه الآية من عموم البشر إلى الكافرين منهم من خلال سؤالهم: أأمِنْتُم ـ أيها الكفار ـ عقابَ الله لكم على كفركم به، وقدرتَه أن يحرك الأرض ويزلزلها، ويذهب باستقرارها فتضطرب، ويختلَّ نظامها؟

١٧ ـ أم أَمِنْتُم ـ أيها الكفار ـ عقاب الله لكم على كفركم بأن يُرْسِلَ عليكم حجارة من السماء يعذبكم بها، كما حصل مع بعض الأُمم السابقة؟ إنَّكم حين ترون ذلك ستُوقنون أن الإنذار والتخويف من الله حق، وأنَّه قادر على إنفاذ وعيده.

١٨ ـ تبدأ هذه الآية بالقَسَم على أنَّ الأُمم السابقة لهذه الأُمة كَذَّبَتْ

رُسُلَها، فكان عقابهم على ذلك أليماً، فقد نزلت بهم أصناف من العذاب عقاباً لهم، وإنكاراً من الله تعالى عليهم.

١٩ ـ تلفت هذه الآية أنظار الخلق إلى إحدى نِعَم الله ودلائل قدرته، وتدعوهم إلى النظر فيها والاعتبار بها، فإنَّ الله سَخَّرَ الهَواء لـحَمْلِ الطيور، تبسط فيه أجنحتها في أحوال، وتَضُمُّها وتخفق بها في أحوال أخرى. وكل هذا برحمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي يمسك هذه الطيور أن تسقط برحمته، وهو سبحانه البصير بكل شيء، العليم بكل حال، المبدع في خلقه.

٢٠ ـ تُخاطب هذه الآية المشركين، وتسألهم عَمَّنْ يستطيع أن يمنع عنهم عذاب الله حين يقع، ومعلوم أنَّه لا أحد يُمكنه ذلك، ولكن الكافرين مصابون بالغرور، ويظنون أنَّهم في منأى من عذاب الله أن يصيبهم، وأن آلهتهم تحفظهم منه.

٢١ ـ تسأل هذه الآية المشركين: هل يملك أحد أن يرزقكم إنْ مَنَعَ الله عنكم الرزق، وحَجَبَه عن الوصول إليكم؟ والجواب واضح أن لا أحد يملك ذلك، ولكنَّ الكافرين يرفضون التسليم بذلك، ويتمادَون في عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق.

٢٢ ـ في هذه الآية مقارنة بين المشرك الذي يسير على غير هدى، ويتخبَّط في سيره، ويتعثر ويخرُّ على وجهه بسبب وعورة طريقه، وعدم تبيُّن السبيل له، وبَيْنَ المؤمن الذي يسير قائماً معتدلاً يرى طريقه بوضوح، ويعلم معالمه، ويصل إلى غايته، فهل يستوي هذا وذاك؟

٢٣ ـ هذا أمر بإعلام الخلق أنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم، وأحسن خَلْقَهم، بأن مَكَّنَهم من السمع والإبصار والإدراك؛ ولذا فهو المستحق للعبادة والطاعة والشكر على هذه النعم العظمى، ولكن عدداً قليلاً مِنْ عباده مَنْ يعلم قيمة هذه النِّعَم، ويحافظ عليها، ويشكر خالقه على مَنْحِه إياها.

٢٤ ـ والله تعالى هو الذي بَثَّ الخَلْقَ على هذه الأرض، وفَرَّقهم في أنحائها، لتعمرَ الأرض بالحياة. ومرجع هؤلاء الخلق إليه وحده يوم القيامة، إذ يحشرهم ويحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ أمر الله تعالى بالمشي في الأرض طلباً للرزق، ولم يأمر بالسعي، لما يعلمه سبحانه من حال الإنسان في الحرص على الرزق والمبالغة في طلبه، فكأنَّ الأمرَ بالمشي دون السير للتخفيف من الاندفاع، والتقليل من الاجتهاد البالغ في طلب الرزق.

٢ ـ كَشَفَ العلمُ أن الطيور الصافَّة تُركب من التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصَفَّت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقياً فتصُفُّ الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى. وتوصَّل العلم إلى أن كل طائر عندما يضرب بجناحيه يعطي رفعة إلى أعلى للطائر الذي يليه مباشرة، وعلى ذلك تتخذ الطيور المهاجرة ـ بإلهام الله تعالى ـ الطيران على شكل الرقم (V). وهذا الشكل يُمَكِّنُ الطيرَ من الطيران مسافات إضافية قُدِّرَتْ على الأقل بـ «٧١٪» زيادة على المسافة التي يمكن أن يقطعها فيما لو طار بمفرده. (صور إعجازية في القرآن الكريم، ص ١٧٧ ـ ١٧٨).

٣ ـ التعبير عن قبض أجنحة الطيور في الهواء بالفعل المضارع ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ دلالة على تجدُّد هذه الحركة واستمرارها وضرورتها من أجل إتمام عملية الطيران للطيور.

٤ـ في قوله تعالى: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تشبيه لحال المشرك بالدابَّة في مَشْيِه مُكِبّاً على وجهه مُنَكِّساً رأسه، فهذا حال الدوابِّ في هَيْئَتِها ومَشْيِها.

٥ ـ قُدِّمَ السمع على البصر في الآية الكريمة؛ لأنَّ الجهاز السمعي يعمل عند الإنسان قبل الجهاز البصري، وأُفْرِدَ السمع مع جمع الأبصار؛ لأنَّ الإنسان إذا كَثُرَتْ حوله الأصوات لا يستطيع تمييز بعضها من بعض، ولكنْ إذا رأى عدداً كبيراً من الناس يستطيع التمييز بينهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ
وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٥ ـ يسأل الكافرون النبيَّ الكريم ﷺ والمؤمنين عن يوم البعث والجزاء قائلين لهم: إن كان كلامكم صحيحاً في ثبوت هذا اليوم فأعْلِمُونا متى يكون؟

٢٦ ـ يأتي الجواب عن سؤالهم بتوجيه النبي ﷺ أن يقول لهم: عِلْمُ يوم البعث والجزاء عند الله وحده، وتنحصر مهمتي في إعلامكم بحصوله وتأكيد وقوعه، وتبيين الحق، والدعوة إليه.

٢٧ ـ في يوم الجزاء وهو آتٍ لا ريب فيه، وكلُّ آتٍ قريب، تَسْوَدُّ وجوه الكافرين، ويظهر عليها الكآبة والذِّلَّة، وتقول لهم الملائكة: هذا اليوم الذي كنتم تُنْكِرُون وقوعه، وتستعجلون حصولَه استهزاءً وتكذيباً، قد حصل ووقع.

٢٨ ـ قل ـ أيها النبي الكريم ـ للمشركين الذين يَتَمَنَّون موتك ومَوْتَ مَنِ اتبعك من المؤمنين: أخبروني إن هلكتُ أنا وأتباعي، أو بقيت حياً برحمة الله وفضله، هل ثمة مَنْ يَحْميكم من عذاب الله حين ينزل بكم؟ وفي هذا إقامةُ الحجة على المشركين بأقوى عبارة وأبلغ أسلوب، فعذابهم حاصلٌ لا محالة، وليس مرتبطاً ببقاء النبيِّ وأتباعه، أو بموتهم.

٢٩ ـ قل ـ أيها النبي الكريم ـ للمشركين: نحن آمنَّا بإلهنا الرحمن إيماناً جازماً، وعَلِمْنا يقيناً قدرته وعظمته، فلم نتوكَّلْ إلا عليه، ولم نسأل العون إلا منه، وأنتم كفرتم به، وسيظهر يوم القيامة ـ حين يحاسب اللهُ الخلقَ ـ الفريقُ الخاسر المغرق في الضلال والتيه.

٣٠ ـ قل ـ أيها النبي الكريم ـ للمشركين: أخبروني بعد تفكُّر وتَأَنٍّ، إن حُرمتم من نعمة الماء فذهب في أعماق الأرض بعيداً، مَنْ يستطيع أن يغيثكم بماء عذب جارٍ، قريب التناول، سهل الاستخدام؟ وتنتهي الآية دون ذكر الجواب؛ لأنَّه لا يمكن إلا أن يكون الله وحده هو القادر على الإغاثة

والإتيان بالماء؛ لأنَّه صاحب الأمر في هذا الكون، ولا قدرة لأحدٍ على مثل هذا الفعل العظيم. وفي هذا السؤال وجوابه إقامة الدليل على وحدانية الله وعظمته، ووجوب عبادته وحده دون ما سواه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تأكيد أن علم الغيب لله وحده سبحانه، ولا يمكن لأحدٍ عِلْمُ شيء من الغيب إلا أن يُعْلِمَه الله به.

٢ ـ إقامة الحجة على المشركين من خلال سؤالهم عن أمور لا يقدر عليها أحد إلا الله، مثل: مَنْ يجيرهم من العذاب يوم القيامة؟ مَنْ يأتيهم بماء معين إن غار ماؤهم؟

٣ ـ وقع التعبير عن الموت في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّ الموت هلاك، ووقع التعبير عن الحياة بالرحمة؛ لأنَّ حياة المؤمنين فيها زيادة طاعات وفِعْلُ خيرات.

٤ ـ وَضَعَ الظاهرَ موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وبيان أنَّه السبب في عدم نجاتهم. (الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٣٥٢).

٥ ـ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إخراج للكلام مَخْرَجَ الإنصاف؛ إذ فيه تسوية بين الفريقين، وجعلهما محتملين للضلال بنسبة واحدة، مع حصول اليقين لدى صاحب الحق به، وهو من أساليب الإقناع.

٦ ـ تشير الآية الكريمة الأخيرة في السورة إلى أهمية الماء في حياة الإنسان، فبدونه تستحيل الحياة. ومن رحمة الله بخَلْقِه إمدادُهم بالماء على نحوٍ دائم لا ينقطع، ولا يَغُور في الأرض.

٧ ـ قد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكون الصدوع والخسوف الأرضية، كما قد يغور بالضَّخِّ المفرط الزائد على معدل تَدَفُّقِ الماء إلى البئر، وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوضه إذا غار إلا رب العالمين. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص٤٥١ ـ ٤٦٨).